• دريافت ۱۴۰۰/۱۰/۲۳
• تأييد ۱۴۰۰/۱۲/۱۸

دراسة سوسيونصّية في رواية خان الخليلي لنجيب محفوظ

أمير فرهنگ‌نيا *
علي پورحمدانيان **

الملخّص

تعدّ السوسيونصيّة من الدّراسات النابعة عن المنهج الاجتماعي للنّقد الأدبي والتي رأت النّور في القرن العشرين. ساعد التحليل السوسيونصّي على تناول العمل الأدبي من حيث الإيديولوجيا والطّوابع الثقافيّة والسياسيّة. بما أنّ الرواية الحديثة أخذت على عاتقها تصوير وتخليد الآلام والأزمات التي يعانيها الإنسان ويواجهها على مرّ الزمن وخاصّة الواقعية منها ظهرت الكثير من الدراسات التي نظرت إلى الرّواية من المنظور السوسيونصّي. رواية خان الخليلي من أشهر روايات نجيب محفوظ الواقعية التي بدأت بتصوير الحياة والواقع الاجتماعي المعاش، والملامح الثقافية والسياسية للشّعب المصري في فترة الحربين العالميتين. وبما أنّ هذه الرواية بمثابة السجلّ الذي دوّن فيه معلومات تاريخية واجتماعية قيّمة تُساعد القارئ على التوصّل إلى فكرة كلّية وعامّة بالنسبة إلى تلك الظروف المُعاشة بإمكانها أن تكون مادّة خصبة للتحليل السوسيونصّي. حاول هذا المقال تسليط الضّوء على السّوسيونصيّة في هذه الرواية وفقاً للمنهج الوصفي- التحليلي وبناءً على الطابع الاجتماعي للنّقد والتّحليل بهدف التوصّل إلى أهمّ ميزات الحياة الاجتماعية في المجتمع المصري وكيفيّة ظهورها في الرّواية. تسلطى الضّوء على الأصوات الروائية وخطاب الشخصيات الأيديولوجي ودراسة الأمكنة الهامّة في الرواية من أهمّ الموضوعات الفرعيّة التي انتقاها هذا المقال. ومن النّتائج التي وصل إليها هي أنّ هناك أصواتاً وأفكاراً عديدة، تشابهت وتناقضت حتّى وصلت إلى شيء من الغموض الّذي يحكي عن عدم التراتيبيّة والضّوضاء التي خيّمت على المجتمع المصري وعلى مدى مستويات الأنظمة الاجتماعية والثقافية والسّياسية آنذاك وأنّ رواية خان الخليلي لم تدع شاردة ونافرة من الحياة الاجتماعية إلّا وعبّرت عنها ويمكن القول بأن جماليّة هذه الرواية تتمثّل في نمط التعبير عن الأزمات والواقع المعاش وكذلك الحفاظ على الطابع الأدبي وجاذبيّة الرواية حتى تبقى صادقة وتجعل القيمة الفنية هي الغاية والهدف.

الكلمات المفتاحية: السّوسيونصّيّة، النقد الاجتماعي، الرواية المصرية، نجيب محفوظ، خان الخليلي.

* أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الشهيد بهشتي (الكاتب المسؤول) a_farhangnia@sbu.ac.ir
** طالب دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الشهيد بهشتي ali.purhamdanian@gmail.com

١. المقدمة

تمشّياً مع تطوّر العلم والمعرفة تطوّرت الرؤية بالنسبة إلى الأدب حيث أصبحت لـلأدب مهمّات تُساعد الإنسان على مواجهة الكثير من التحدّيات في هذا العصر ولعـلّ توسّـع ساحة النقد وظهور المناهج النقدية وكذلك المدارس الناجمة عنها من أهمّ المنتجات التي أدت إلـى تطـوّر الأدب وفتحـت آفاقـاً جديـدة علـى الإنسـان. دراسـة الأدب مـن المنظور الاجتماعي والكشف عن العلاقة بين الأدب والمجتمع وتأطير أصول وقوانين جديدة لتلك العلاقات من الأبواب التي فتحها النقد الاجتمـاعي إذ لا يمكـن لأحـد أن ينكر العلاقة الموثّقة بين الاجتماع والأدب، فالأدب بمثابـة المـرآة التـي تعكـس كافّـة التفاصيل المتعلّقة بالإنسان، ودوره في المجتمع لايستثنى من ذلك وقـد يكـون أهـمّ هذه التفاصـيل «فيجـب أن يُنظـر إلـى الأدب فـي علاقتـه غيـر المنفصـلة عـن حيـاة المجتمع وفي خلفيّة العناصر التاريخية والاجتماعية التي تؤثّر في الأديـب» (Some recent soviet studies in literature, v، 1956: 141). لم يتحدّد هذا الأصـل والترابط بالعهد الحديث بل يؤيّد التّراث الأدبي العالمي والعربي هذا الأمر بحيث يُمكن أن يتمّ البحث عن الجذور الرئيسة والأفكار الأوليّـة حـول العلاقـة الوثيقـة بـين الأدب والمجتمع في نظريّة المحاكـاة وكـذلك القصـائد العربيّـة التـي قـدّمت فـي كثيـرٍ مـن الأحيان لوحة زاخرة عن الحياة العامّة للمجتمع. أمّا النقد الغربي الحديث فدرس هـذه القضيّة بشكلٍ جديدٍ وأدّى هذا الأمر إلى ظهور آراء وأفكار ونظريّـات حديثـة فـي هـذا المجال قد تكون أهمّها الدّراسـات السوسيونصّـيّة. السوسيونصـيّة مـن الأبـواب التـي نشأت منذ منتصف القرن العشرين. تعود سوسيولوجيا النص وجذورها إلى الأفكار التي خلّفها كارل ماركس[١] وجورج لوكاتش.[٢] يعدّ لوسيان غولدمان[٣] من أشهر المنظّرين في هذا المجال فهو طوّر أفكار لوكاتش ووثّق العلاقة بين الأديب والمجتمـع أمّـا بالنسـبة إلى السوسيونصيّة فيجب أن يُشار إلى روّاد هذا المنهج النقدي للتحليل الأدبـي وهمـا بيير زيما[٤] وكلود دوشي[٥]. يعتقد زيما أنّ السوسيونصيّة ليست إلّا معرفـة الطّريقـة التـي

يتفاعل بها «النص الأدبي مع المشكلات الاجتماعية على المستوى اللساني» (يُنظر: زيما، ١٩٨٥: ١٧١). تعرّض مصطلح السوسيونصّية إلى بعض الخلافات شأن الكثير من المصطلحات النقدية التي تُرجمت من الثقافة الغربيّة إلى العربيّة فاتّخذ المنهج السّوسيونصّي للدّراسات الأدبيّة عند مناصريه قواعد وأصولاً لا تختلف في ذاتها وجوهرتها وتتمثّل البنيّة الرئيسة لدراسات السوسيونصيّة في أنّها تركز على ترابط الجانب الدّاخلي والخارجي للنص الأدبي مع الواقع والأيديولوجيا. فالنّاقد أمام العالم المُعاش والعالم الروائي وعليه أن يبحث عن كيفيّة بلورة المجتمع بأفكاره وثقافته وحضارته وسياسته وكافّة جوانبه في العمل الأدبي.

خان الخليلي من أشهر روايات نجيب محفوظ وهي حكاية أسرة عاشت زمن الحرب العالمية في مصر وشهدت المأساة والدّمار والويلات التي حلّت بهذه البقعة وكذلك تحمل ميزة هامّة وهي التعبير عن الأفكار وثقافة المجتمع واتّجاهاته السياسية آنذاك فهي تدلّ القارئ على المجتمع المصري بكافّة تفاصيله من الحرب التي أخذت تجرّ ويلاتها على مصر والمقاهي التي كانت موضع تناقل الأخبار والأنباء والضّمائر التي عاشت أيّام البؤس والشّقاء بقلوب خضعت للحبّ وتلاشت في التوصّل إليه وخاصّة أنّ الأديب أدرك تلك الظروف ورام نقلها إلى المخاطب. يحاول هذا البحث القيام بتحليل ودراسة رواية خان الخليلي وفق المنظور السّوسيونصّي وبناءً على المنهج الوصفي-التحليلي ويسعى إلى الردّ على السؤالين التّاليين:

١- ما التقنيات التي اتّخذها محفوظ للتّعبير عن ملامح السوسيونصية في رواية خان الخليلي؟

٢- كيف تجلّت الصورة الواقعية للمجتمع المصري في رواية خان الخليلي؟

١-٢. خلفيّة البحث

من المقالات التي عالجت السوسيونصيّة وسلّطت الضّوء على جوانب منها «دراسة

سوسـيولوجيّة فـي روايـة ذات لصـنع اللـه إبـراهيم لخـاطرة أحمـدي ومحمّـد خاقـاني إصفهاني ونرگس گنجي، المنشور عام ۱۴۳۹ في مجلّة اللغـة العربيّـة وآدابهـا، السّـنة ۱۴، العـدد ۲، ص ۲۰۹- ۲۳۳. حيـث يركّـز علـى الشخصـيات الحكائيـة والـزمن والمجتمع والفضاء الروائي والمجتمع ودلالاتـه الاجتماعيـة وفقاً للمـنهج الاجتمـاعي وتُشير النّتائج إلى أنّ صنع الله إبراهيم يعرّف حياة الطّبقات المصرية المتوسّطة معرفـة دقيقة لعيشه طيلة العمر في مدن مصـر وتعبّـر هـذه الروايـة عـن أيديولوجيّـة محـدّدة، يمكـن التعبيـر عنهـا مـن خـلال اتّحـاد كـلّ مكوّنـات بنيـة الروايـة. ومقـال «دراسـة سوسيونصّية في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي»، لفاطمـه أكبـريزاده، كبـرى روشنفكر، خليل پروينى وحسينعلي قبادي، المنشور عام ۲۰۱۴ في مجلّة دراسات في اللغة العربيّة وآدابها، العدد التّاسع عشر، صفحة ۲۵_۱، حيـث قـام البـاحثون بتسـليط الضّوء على ثلاث مستويات: الأساليب الكلاميّـة ونوعيّـة الـراوي والأسـاليب السّـرديّة والمنظور الأيديولوجي ومن النتائج التي توصّل إليها المقـال هـي أنّ الخطـاب الروائـي من ناحية الأساليب الكلاميّة يدور بين نقطتين بعيدتين في المسافة الجماليـة حسـب موقع الرّواي حيث يتذبذب موقـع الـراوي بـين الموقـع المهـيمن فـي أسـلوب التقريـر السردي وبين الموقف الحيادي في أسلوب الكلام المباشر.

تعرّضت رواية خان الخليلي للكثير من الدّراسات نظراً لأهميّتها في الأدب العربـي المعاصر منها مقال «استنتاج الدّلالات الضّمنية في خطاب الحوار الروائي روايـة خـان الخليلي أنموذجاً في ضوء مبدأ الاستلزام الحواري» لأماني محمّد عبد الكريم عطيّـة، المنشور عام ۲۰۲۰، العدد الثّالث وثلاثون، الـرّقم الثّـاني، بحوليـة كلّيـة اللغـة العربيـة بإيتاي البارود حيث تنـاول مطالعـة اللغـة فـي الاسـتعمال ومقاصـد المـتكلم والسّـياق والمخاطب بقدرته على الفهم والتّأويل وتحليل الدّلالة اعتمـاداً علـى نظريّـة المبـادئ الحوارية لجرايس ومستخدماً المنهج اللساني التّداولي ومن النّتائج التـي توصّـل إليهـا أنّ مراعاة الأدب في الكلام كانت سبباً في انتهاك إحدى مبادئ التعاون لجرايس كما

ظهر من خلال تحليل الحوار في الرواية وأنّ للنبر والتنغيم، وحركات الوجه التي يتمثّلها القارئ منطقيّاً في الحوار داخل الرواية الدور الرّئيس في استنتاج الدّلالات الضّمنية فيها، وبيان المعاني غير الظّاهرة في الحوار. ومقال «دراسة هويّة المكان الثّالث في رواية خان الخليلي لنجيب محفوظ على أساس نظريّة اولدنبرج» لنسرين كاظم‌زاده وفرامرز ميرزايى، المنشور عام ۱۴۰۰ في فصليّة لسان مبين العلمية، السّنة الثانية عشر، العدد الثّالث والأربعون.حيث يحكي عن الأمكنة في الرواية وربطها بالشخصيات وخصائصها التي انفردت بها أو اشتركت فيها مع الأمكنة الأخرى. من النتائج التي توصّلت إليها هي أنّ القهوة والكازينو لهما خصائص هامّة كالحياديّة والمساواة والحوار والبساطة والزّبائن الثّابتة ويمكن أن يمثّلا التّقابل بين المكان السّلبي والإيجابي وأن يؤدّيا دوراً هامّاً في تغيير بنية الشخصيات الأصليّة للرّواية. بناء على ما تقدّم، لم يتمّ دراسة سوسيونصيّة في رواية خان الخليلي ويحاول الباحثان التركيز على الأساليب الكلاميّة والأصوات الروائية والأمكنة ومدلولاتها الاجتماعية في الرواية.

۲. سوسيونصيّة الأدب

واجه الأدب في مساره الكثير من الأفكار والرّؤى التي أدّت إلى نضوجه والتصاقه الأكثر بذات الإنسان وبما تتطلّبه هواجسه ونفسيّاته، فقبل ظهور المجتمعات المدنيّة، كان الأدب يستخدم للتسليّة والترويح عن النّفس غالباً، ولكن بعد خضوع الإنسان للمدنيّة والتطبّع بالجانب الحضاري، أصبح الأدب بوقاً للوصول إلى أغراض أهمّ مما سبق ولكن في العهد الحديث، فتوصّل إلى غايات أبعد وأثمن، منها ما نادت بها المدرسة الواقعية وخاصّة ما يُقرأ في الأدب الملتزم، أي أن الأدب يجب أن يكون في خدمة المجتمع ويعبّر عن مأساته ومعاناته وغايات أخر. تعدّ سوسيونصيّة العمل الأدبي من المفاهيم التي دخلت دائرة الدراسات الاجتماعية في القرن العشرين، و«تحاول تحديد العلاقة بين البناء الفكري داخل النص، أي نسقه الدّاخلي، وبين النظام

الاجتماعي أي النسق الخارجي للنص.» (يُنظر: زيما، ۱۹۸۵: ۶۴). تحاول هذه النّظرة النقديّة الكشف عن العلاقات النصيّة التي تظهر في النصّ الأدبي لكنها ارتبطت بصلة وثيقة مع ما يشاهد على ساحة المجتمع والنصّ الروائي يعني أن الأديب أو المؤلّف «يجسّد البنيات الاجتماعية بشكل أجلى من خلال بعده النّثري وخلقه لعالم اجتماعي يتفاعل مع العالم الاجتماعي المعاش» (يقطين، ۲۰۰۱: ۱۴۰).

اهتمّ ميخائيل باختين[۶] بالنصّ الداخلي للعمل الأدبي وتحديداً بلغة النص وتنظيمه الدّاخلي دون التركيز على المرجعيّات الخارجيّة، واعتبر الرواية حاملة لأنساق فكريّة متجسّدة بخطابات اجتماعية في نسقها اللغوي أمّا هابرت[۷] وتامين[۸] فيعتقدان بأنّ سوسيولوجيا النص هي الدراسة «السوسيو-سيميائيّة، وتستعمل لتصوّرات سوسيولوجية وسيميائية وتسعى إلى الكشف عن المشكلات الاجتماعية على المستوى اللساني» (Tamine and Hubert، 2004: 204). على الباحث للدراسة السوسيونصّيّة أن يقوم بالتحليل اللساني واللغوي للنص الأدبي، أمّا الفارق بين سوسيولوجيا الرواية وسوسيولوجيا النص الروائي هو أن سوسيولوجيا الرواية يدلّ على منهج نقدي يصفه البنيويّون المعاصرون بأنّه يجعل اهتمامه في البحث عن الجوانب المفسّرة لحدوث النص الروائي وهذا يعني أن الحديث عن العناصر الخارجيّة بالنسبة للنص يحتلّ مكان الصّدارة في التحليل أمّا سوسيولوجيا النص فهي تمتلك الوسائل والتقنيّات المسهّلة لتحليل الأعمال الروائية من الدّاخل (لحمداني، ۱۹۹۰: ۷۲). يُعدّ ميخائيل باختين من أشهر باحثي الدراسات السوسيولوجية ولعلّه من روّاد سوسيولوجيا الرواية أمّا بيير زيما فيعدّ الرّائد الذي أشار إلى ميزات وقواعد سوسيولوجيا النص في كتبه إذ ينقد سوسيولوجيا المضامين ويعارض مفهوم البنية الدّالة عند غولدمان وينتقد السوسيولوجيا التي نادت بها الماركسية الروسية فهو يعتقد بأن علم اجتماع النص لايستطيع اتّخاذ المفهوم التقليدي للشكل والذي له تضمّنات مثاليّة وميتافيزيقيّة، بل عليه أن يتجاوز حدود الخطاب الجمالي (الفلسفي) وتقديم المستويات النصيّة

المختلفة كبنى لغوية واجتماعية في نفس الوقت خاصّة، المستويات الدّلاليّة والتركيبيّة وعلاقتها الجدليّة (زيما، ١٩٨٥: ١٧١). فالنقد السوسيونصي يمكنه أن يتوصّل إلى البنية الاجتماعية في النص الأدبي وثقافتها وتردّيها ولغتها وحضارتها وما إليها من المقوّمات والملامح الأخرى، لكن التركيز على اللغة في الدراسة السوسيونصيّة واضحٌ تماماً وهي الحجر الأساس لإنجاز عملٍ أدبي.

٣. خطاب الشخصيات وأبعادها الأيديولوجيّة

يكشف الخطاب السردي عن المبادئ والرّوئ وأفكار الشخصيات الروائية، فعندما يريد الأديب أن يخلق عملاً أدبيّاً مترابطاً مع التّاريخ، يحاول استخدام اللغة والمفردات التي تكون في علاقة مباشرة مع أحداث تلك الحقبة الزمنية وهذا ما يجب الانتباه إليه في الحديث عن الرواية الخياليّة أو الاجتماعية، فعندئذ يكون الخيال وواقع المجتمع حقلين بإمكانهما أن يكونا مصدرين يساعدان الرّوائي في إبداعه الأدبي. يعدّ الحوار من أهم الموضوعات التي تتجلّى فيها خطاب الشخصيات، والخطابات هي الجذر التأسيسي والمنظومة القيمة التي تنبثق منها الأفكار «فالعلاقات الحواريّة تستطيع التغلغل "التسلّل" إلى أعماق التّعبير وحتّى إلى أعماق الكلمة المفردة، بشرط أن يصدم فيها صوتان اصطداماً حواريّاً» (باختين، ١٩٨٦: ٢٦٩). يستخدم الروائي أمثال هذه الخطابات الحواريّة في رواية خان الخليلي قائلاً: «لن يبلغ الأذى مهبط رأس الحسين/ فقال له الآخر: قل إن شاء الله!/ كلّ شيء بمشيئة الله/ وهتلر ينطوي على احترام عميق للبقاع الإسلامية!/ -بل يقال إنه يبطن الإيمان بالإسلام!/ -سوف يعيد (بعد فروغه من الحرب) إلى الإسلام مجده الأوّل، وينشئ من الأمم الإسلاميّة اتحاداً كبيراً، ثمّ يوثِق بينه وبين ألمانيا بعهود الصّداقة و التحالف!» (محفوظ، ٢٠١٢: ٧٠). جرى الحوار بين الشخصيات الثانوية للرّواية وهم أصدقاء أحمد عاكف (الشخصية الرئيسة) الذّين كانوا يجتمعون في المقهى كلّ ليلة للتسلية والضّحك ولم

يكن المتحاورون من الفئة الدّارسة والمثقّفة، بل كانوا مـن العمّـال والمتقاعـدين، وأراد الروائي أن يميّز بين الطّبقة العامّة والطّبقة المثقّفـة مـن النّـاس بوضـع الحـاجز بيـنهم وبين شخصيّتين أخريين وهما أحمد عاكف أفندي والوكيل أحمد راشد. الحـديث عـن «مهبط رأس الحسين» واستخدام مفردات كـ«إن شاء الله» و«مشيئة اللـه» و«احتـرام البقاع الإسلاميّة» و«استرجاع مجد الإسلام» و«عهود الصّداقة والتحـالف» كلّهـا مـن المؤشّرات الدّلاليّة التي تحكي لقارئها عن أفكار وأيديولوجيا الطّبقة السّائدة وهي التـي تتمثّل في الإيمان بالقدر وعدم إمعان نظر أبناء المجتمع في الأحـداث والمـرور عليهـا مرور الكرام، طالما أن «الكلمة هي الظّاهرة الأيديولوجيّـة الأمثـل» (بـاختين، ١٩٨٦: ٢٣). فأراد الروائي أن يبيّن بهذا الحوار سذاجة الشّعب وكذلك تصديقه للشّـائعات التـي اضـطجّت بهـا مصـر آنـذاك، حيـث كـان لكـلّ حـزبٍ ومنحـى سياسـى مناصـروه، والحوارات ناقلة للأفكار إذ تصدّق فئةُ العوام الأقوالَ والأحاديث التي قيلـت عـن هتلـر ونواياه من الحرب في مصر حتّى قـال: ظـنّ الكثيـر مـنهم بـأنّ هتلـر يُـبطن الإيمـان بالإسلام وكذلك يودّ أن ينشئ من الأمم اتّحاداً كبيراً ومن ركائز هذا الشّاهد اسـتخدام المصطلحات المستمدّة من الطـابع الـدّيني للشخصـيّات إلـى جانـب الأحاديـث سـواء كانت سياسية أو غير سياسية حيث يحكي هـذا الاسـتخدام عـن سـذاجة الشـعب فـي تصـديق الأخبـار وكـذلك الإصـرار علـى قبـول الأحاديـث المتبادلـة بيـنهم وبواسـطة الحوارات تظهر الخلافات ووجهات النّظر الأخرى التي قد تكون متناقضة مع الأفكـار التي قُدّمت سابقاً: «عـاكف: كـلا... إنـي مـع الحلفـاء قلبـاً وقالبـاً، و أنـت؟!/ فسـوّى المنظار الأسود على عينيه وقال: لي أمل واحد: أن ينتصر الرّوس ويحرّروا الـدّنيا مـن الأغلال والأوهام!» (محفوظ، ٢٠١٢: ٧٤). يحمل الشّاهد دلالـة جميلـة إذ لـم يكـن المثقّف محايداً بالنسبة إلى الأفكار العامّة ولو كانت خرافيّة لا تمتّ مـع العقـل بصـلة، فيتوصّل القارئ من خلال حديث أحمد راشد إلى أن الدّعاية الروسية في مصـر كانـت تسيطر على المثقّفين والفئة الدّارسة وليست الروسية فحسب بل انهال على هذا الحي

العتيق «غارات الأوروبيين بكلّ معدّاتهم الحربيّة الحديثة، والتي هي نتاج حياتهم الأوروبية المتفوّقة إلّا أن أحمد راشد يمثّل أمام عاكف نفس عقدة التفوّق للثّقافة الأوروبيّة الحديثة أمام الحضارة والثّقافة الشرقيّة» (الشّاذلي، ۱۹۸۵: ۴۶۷). تحكي كافة الحوارات المتبادلة بين أحمد راشد وأحمد عاكف عن الخلاف في وجهة نظر كلّ من الشخصيات وفقاً لرؤيتهما واختلاف مصادر الثّقافة بينهما. تلخّص مفردتا «الأغلال والأوهام» أفكار مناصري الألمان؛ فراح الألمانيّون يبثّون الخرافة والأوهام والمواعيد الواهية بين الشعب آنذاك وهي لم تكن أقلّ خطراً من تلك الدّعايات. والحقيقة هي أن الصراع الموجود بين مناصري كلّ من قوّات الحلفاء ودول المركز ظهر بشكلٍ جليّ في الرواية حيث كانت هذه الحوارات تؤدّي إلى جدلٍ ينتهي بذكر المساوئ والاستهزاء التي كانت تنسبها كلّ من الشخصيات المتحاورة للبعض وفيها إشارة إلى التخلّف الفكري حتّى عند الفئة المثقّفة، إذ يؤيّد ذلك «دعاء انتصار الرّوس وتحرير الدّنيا من الأغلال والأوهام» على لسان أحمد راشد كشخصية مثقّفة. على الرّغم من أنّ الروائي استمدّ شخصيّاته الروائية من الخيال ولكنّه حرص على إنجاز العلاقة بين هذه الشخصيات والتي عاشت ذلك الواقع بشكل واقعي وملموس وهذا ما يساعد القارئ في الوصول إليه حيث يقول الروائي:

«سيهجّرون طبقة ويلحقون بأخرى! / -إن الحرب ترفع الكثيرين من السّفلة/ - السّفلة!.. هذا صحيح ولكن لا يوجد حد فاصل بين السفلة والطبقة العالية فأرستقراطيو اليوم كانوا سفلة أمس. ألا تعلم أن رعاع الغزاة انتهبوا أراضينا بحكم الغزو؟ وها هم أولاء يكونون طبقة عالية ممتعة بالجاه والسّؤدد والامتيازات التي لا حصر لها» (محفوظ، ۲۰۱۲، ۶۱). يدور الحوار بين أحمد عاكف، الشخصية الرئيسة في الرواية وأحمد راشد وكما يتّضح من المشهد الحواري لم يكن الثاني متجاهلاً بالنسبة إلى الظروف التي عايشها المجتمع وعانى منها. لم يكن محفوظ منحازاً إلى أيديولوجيا خاصّة في هذه الرواية، كما أنها رواية بوليفونيّة إذ كلّ الشخصيات تمثّل

رؤى وأفكار فئة خاصّة من المجتمع «والشّخوص الروائية المتوفّرة على درجات مختلفة من الاستقلال الأدبي والدلالي وعلى منظور خاص، تستطيع بفعل أقوالها وتدخّلاتها في مسار السّرد عن الحوار أن تكسر نيّات الكاتب وأن تعتبر أقوالها وملفوظاتها بالنسبة إليه، إلى حدٍ ما لغة ثانية» (وديجي، ٢٠١٩: ٨٦). من جماليّات هذه الرواية هي أن الشخصية الرئيسة الأولى وهي أحمد عاكف أفندي لم تكن الشخصية المثالية الواعية بالنسبة إلى أحداث المجتمع والتغييرات الطّارئة عليه بل هي شخصية بسيطة حوّلها محفوظ إلى شخصية محبّبة يرتاح لها القارئ وكذلك شوّه الروائي نظرة القارئ بالنسبة إلى شخصية أخرى حاملة للفكرة التي قد تكون أكثر تطوّراً وهي شخصية أحمد كما يحكي عن التفلسف الواهي والمزيّف من قبل بعض الشخصيات فيما يتعلّق بالواقع فالحوارات تحكي عن الإطار الطّبقي في مجتمع مصر وكيف أن الشخصيات الروائية وحتّى الشعبيّة منها بدأت تدلي بدلوها حول الطبقات الاجتماعية وموقفها من تغييرات الحرب.

٣-١. أساليب الشخصيات الكلاميّة وعلاقتها بالبعد الاجتماعي

ما يقصده الباحث بالأساليب الكلاميّة هي أنماط التحدّث واستخدام المصطلحات الشعبيّة وكذلك استخدام نمطيّة الحوار التي اعتاد عليها الشّعب المصري وليس بصدد تحليل أساليب استحضار الأقوال الخمسة أي الكلام المباشر والكلام غير المباشر والكلام الحر المباشر والتقرير السّردي لأفعال الحديث و الكلام الحر غير المباشر (يُنظر: الكردي، ٢٠٠٦: ١٦٧). عبر تحليل الأساليب الكلاميّة لشخصيّات الرواية، يمكن تكوين تصوّر حول علاقة النص بالبنية الاجتماعية والبنية الثقافية التي أنتج في سياقهما؛ فالمغزى من مقاربة البعد الاجتماعي للنص هو الكشف عن علاقة ذلك النص بمجتمعه من جانب ومن جانب آخر تبيان تجّليات قيم هذا المجتمع وأنساقه وانعكاسهما على النص (عبدالنّبي، ٢٠١٦: ٤٠٢). يستطيع القارئ أن يتعرّف على

الواقع المعرفي الثّقافي والاجتماعي للشّخصيّات وحتّى الروائي من خلال الأساليب الكلاميّة للشّخصيّات الرّوائية. «...والمكتوب حتماً تشوفه العين. إنّي يا عاكف أفندي من المتوكّلين على الله، وما عرفت حتّى الآن طريق المخبأ. أي مخبأ سعادة البيك؟! هل يستطيع نونو أن يُراوغ الغدر، أو يؤجّل قضاء الله؟!.. ألم تسمع صالح عبدالحي يغنّي نصيبك في الحياة لازم يصيبك؟!» (محفوظ، ٢٠١٢، ٤٢). تحكي هذه العبارات للقارئ عن رؤية نونو بالنسبة إلى الحياة وموقفه من الواقع الاجتماعي. فهذه الشخصية ومعظم الشخصيات الأخرى التي كانت تجتمع في المقهى لم تكن تفصل بين القضاء والقدر وكذلك لم تكن تتمتّع بنظرة مؤطّرة ومنسجمة بالنسبة إلى الأحداث والأعمال وما يتبعها في الحياة فهي لاتدري أين طريق المخبأ بالضّبط وهي متجاهلة بالنسبة إلى أشياء أخرى ذكرتها الرواية. يعدّ الاتّكاء على المصطلحات العاميّة والأمثال الشعبيّة من الموضوعات التي تحكي عن أفكار المجتمع. «يغذّي المثل الشعبي الفكر السّائد في الطّبقات المكوّنة للمجتمع من خلال الخبرات والتّجارب التي مرّت بها، وصاغتها في تلك العبارات التي تلخّص حدثاً أو تجربة» (بن عابد، ٢٠١٩: ٣٧). استخدمت الشخصية الروائية مثلين في مشهدٍ حواري واحد وتحديداً بشكل متتابع وهما «المكتوب حتما تشوفه العين» و«نصيبك من الحياة لازم يصيبك» واستخدم هذا المثل أو مضمونه بواسطة الشخصيات الأخر منها عاكف أفندي وأم أحمد حيث تقول في بداية الانتقال إلى منطقة خان الخليلي: «واللي انكتب على الجبين لازم تشوفه العين» (محفوظ، ٢٠١٢: ٩) والحقيقة أنّ الروائي يصوّر في الشّاهد السّابق للمتلقي نظرة التحديد والتقييد بالظروف المواطئة وكذلك التمسّك بالقدر المحتوم عند الشعب المصري آنذاك وأنّ الرّضا بقدر الله من الخصائص الهامّة التي كان يؤمن بها الشعب المصري لكن هذا الإيمان بالقدر وقبول الأحداث بحضن دافئ أدّى إلى ظهور إشكاليّات أثّرت على عقليّة الشعب المصري في مواجهته للأحداث الجديدة التي ظهرت في المجتمع وكذلك نمط العيش. من الشّواهد الأخرى التي تحكي عن هذه

اللامبالاة: «الغرز على عكس ذلك جديرة بالهدوء والصّمت، فالحشيش سلطانٌ يوجب على مواليه الخشوع والسّكون، بالهدوء والصّمت يبلغ التخدير مداه فيصفو الخيال وتنثال على الخيال الأحلام... / حكمة الحشيش تهبنا ثقة نواجه بها المتاعب بقلبٍ قادر على الاستهانة ... / فليس هذا بكرسي حشيش ولكنّه كرسي اعتراف.. /.. صدقت، هذا حشيش القسيس» (المصدر نفسه: ١٨٦). يتجلى طابع سخري يحكي عن مرتكز هامّ في الرواية وهو يعبّر عن عدم الاهتمام بالأزمات والمشاكل من قبل النّاس ولم يكن الطابع السّخري في هذا المشهد الحواري فحسب بل يظهر في الحديث عن كثير من مشاكل تعمّ الشخصيات الروائية، ولكنه يظهر للقارئ أنّ كلّ شخصية روائيّة تصف الحشيش بشكلٍ سخري وحسب هواها، «وقد تكون السّخريّة نابعة من حسّاسيّة النّاقد نفسه، فهو يكون ذا عين بصيرة نفّاذة، يحسّ نقائص المجتمع، ثمّ يكون ذا روحٍ مرحٍ ضاحك يتناول العالم وما فيه تناولاً بأساليب السّخرية المختلفة، يقصد من وراء ذلك الاصلاح وفي طيّات ذلك الاصلاح» (طه، ١٩٧٩: ١٧). أرادت الشخصيات الرّوائية أن تبعث روح الدّعابة والمرح عند القارئ وخاصّة قارئ تلك الفترة بينما يحكي هذا الحوار السخري الذي صوّره نجيب محفوظ، عن اهتمامه بمشكلة الأفيون وشيوعه في مصر. تنمّ كذلك هذه السخريّة اللاذعة عن اللامبالاة عند كلّ من الشخصيات الرّوائية وهذا يصدر من الجهل الاجتماعي بالنسبة إلى ظاهرة الإدمان وأنّ الكثير من النّاس لم يكن لديهم فكرة أو علم بالنسبة إلى أعراضه وهذا ما أشار إليه الكثير من كتاب الأدب الواقعي الذي يترأّسهم نجيب محفوظ. من الأساليب الكلاميّة هي لغة أحمد راشد في تحدّثه عن التطوّر الغربي: «لقد هيّأت فلسفة فرويد للفرد فرص النّجاة من أمراض الحياة الجنسية التي تلعب في حياتنا الدّور الجوهري. ونهج له كارل ماركس سبل التحرّر من الشّقاء الاجتماعي، أليس كذلك؟» (محفوظ، ٢٠١٢: ٥٩). جرى الكلام على لسان شخصية أحمد راشد التي تدّعي أنّها أخذت تقرأ معلومات كثيرة عن الفلسفة وعلم الاجتماع الذي بدأ يتطوّر

في الغرب بفضل نظريّات الغربيين. أحمد راشد كشخصية مثقّفة تتحدّث عن الانبهار بفلسفة فرويد وكارل ماركس وهذا يعني أنّ المجتمع المصري لم يكن بعيداً عن الأفكار والنّظريّات التي بدأت تنتشر وتخطف الأضواء في العالم ويظهر انبهار شخصية أحمد راشد بالغرب وآراء الغربيين تماماً بحيث تحكي الشخصية عن الدّور الجوهري لأمراض الحياة الجنسيّة في المجتمع المصري وعمّت نظرتها إلى الغرب ولم يتمّ استثناء البلدان العربيّة الأخرى عن رأيها ولم تكن الشخصية المثقّفة في رواية خان الخليلي ملتزمة بالثّقافة الأصيلة التي تحمل عناء التّحليل والتكشّف وهي ظهرت داعية للغرب دون أن تحمل عرقاً دينياً أو وطنياً تجاه الآخر.

٣-٢. الأصوات المستقلّة في الرواية

يعدّ الصّوت من العناصر الهامّة في سرد الرواية و«الأصوات يتكثّف وجودها ضمن إطار إنساني يعجّ بمرجعيّات وبأصحاب توجّهات مختلفة دينيّاً وثقافيّاً واجتماعيّاً وألسنيّاً، تشمل الحقل الروائي كلّه وتغني صراعه الذي اقترب من أن يكون صراعاً في كلّ المستويات الإنسانيّة» (القبيلات، ٢٠١٠: ٣١) ومن حيث إنّ رواية خان الخليلي احتوت على شخصيّات روائيّة كثيرة، تعدّدت كذلك الأصوات في الرواية وكلّ الأصوات مستقلة كانت أو غير مستقلة تسعى إلى تصوير التردّي والانحطاط والفقر والأميّة آنذاك، لكنه حينما يتمّ تبيين الأصوات الروائية يمكن للقارئ أن يتوصّل إلى ملامح جديدة فيما يتعلّق بسوسيونصيّة العمل الأدبي. بما أن الرّواي في خان الخليلي هو «العليم» أو الشّخص الثّالث، فيسهل إلقاء الخطابات بواسطة الشخصيات نفسها، فأتت أصوات الشخصيات واضحة دون أي تخليص من قبل الروائي، والحقّ أن الإكثار من الحديث عن الشخصيات الرّوائية بواسطة نفسها من أشهر ميزات الرواية ومن مظاهر استقلالية الأصوات فيها:

«تقريبا!... الواقع أن مسكننا القديم في حلوان أخلي لأغراض عسكريّة فرأيت أن أنتقل إلى القاهرة قريباً من مكان عملي، ووجدت مشقّة في البحث عن شقّة خالية

حتى أرشدني صديق إلى هنا!» (محفوظ، ٢٠١٢: ٥٦). يتجلّى الخطاب الحرّ في الحوارات التي تخوضها الشخصيات الرّوائية، و«يأتي الخطاب في الأسلوب المباشر الحر دون مقدّمات وأطر، بحيث تندفع الشخصيات في الحديث وكأنّها في عرض مسرحي» (الكردي، ٢٠٠٦: ٢٠٣). بذلك تعبّر الشخصيات عن الأفكار والرّؤى التي تنتمي إليها، فعندئذ يكون السّارد قد عرض لمتلقّيه ما يدور في خلده بشكلٍ مباشر ودون أيّ تدخّل وبإمكان المتلقّي أن يأنس مع هذا النّمط ويدرك ما تعبّر عنه الشخصيات بسهولة أكثر، لكن اهتمام الروائي بالحوارات ظهر بكثرة في الرواية، فاللغات والعبارات التي يستخدمها الروائي، تحكي عن الاختلافات الفرديّة والاجتماعية، كما تجلى في الشّاهد السّابق بتأثّرٍ من المجتمع ونظرة النّاس حول الحرب والأحداث التي تلي الحرب فالسّبب الرّئيس لانتقال عائلة أحمد عاكف هو الحرب وليست المسافة الطّويلة التي كانت تفصل بينه وبين عمله ويتعدّى هذا الأمر إلى الألفاظ والعبارات. تحاول شخصية أحمد بك الاختفاء خلف قناع يصعب إزالته بينما هي لم تخل من أفكار غير طبيعية: «الواقع أنّي لا أعشق التاريخ أكثر من غيره من فروع المعرفة، والحقيقة أني أنفقت أكثر من عشرين عاماً في تحصيل المعارف المختلفة!» (محفوظ، ٢٠١٢: ٥٣). تمثّل شخصية أحمد بك فئة كثيرة من النّاس الذين حالت الظروف دون مسيرة تطوّرهم، سواء على مستوى العمل أو الوجهة الاجتماعية أو ما إليها من الشّؤون. فهو من ضحايا الظروف المعيشيّة الصّعبة كالفقر والظلم الاجتماعي؛ إذن تمثّل الأصوات العديدة في الرواية، انتماء الفئات والتحزّب الشائع في المجتمع آنذاك و«حين تتكوّن أصوات متعدّدة ومتنوّعة على هذا الأساس فإنّها تثري وتكثف الدّلالات وتعبّر بوفاء عن المحتوى الإنساني للأشخاص أنّى تواجدوا. فالأيديولوجيات من صنع البشريّة، ومنها يعبّر الإنسان عن قلقه الوجودي الذي يسبّبه وعيه المؤدلج ليفرغه في جسد سرد روائي محقّقاً الغاية الأدبيّة في تفسير علاقات المجتمع الإنساني الكبير» (القبيلات، ٢٠١٠: ٣٣) والحقيقة أن الخطابات

المباشرة أو الحرّة هي بمثابة السّاحة التي تدلي الشخصيات بدلوها كما تشاء فتبيّن موقفها من الأحداث وتفسّرها من الهوّة التي ترتئيها فلم تكن دراسة أحمد راشد للمعارف المختلفة وافية للتوصّل إلى حقيقة تلك العلوم بل جاءت متأثّرة بنظرة المجتمع في تتبّع أخبار تطوّره ونجاحه في تطلّب العلم. من الأساليب الأخرى للخطاب في الرواية هو أسلوب التقرير السردي إذ «يقترب موقع الراوي إلى المؤلّف ويبعد عن الشخصيات ويسيطر السّارد على الأصوات ويهيمن عليها» (أكبري‌زاده وآخرون، ٢٠١٤: ١٠). يقابل هذا الأسلوب الخطاب المباشر الذي يتّخذ الروائي فيه موقفاً حياديّاً ولايتدخّل في السّرد فـ«الأسلوب السردي غير المباشر هو الذي يمتزج فيه كلام السّارد مع كلام الشخصية المتحدّثة بحيث يمكن تبيّن مظاهر صوتين متداخلين في العبارة السّردية الواحدة، صوت السّارد وصوت الشخصية صاحبة الكلام» (الكردي، ٢٠٠٦: ٢٠٨). يأتي الروائي بشواهد للأسلوب غير المباشر أو التقرير السردي قائلاً: «أيجلس هذا الأعور من فتاته مجلس الأستاذ المعلم؟.. أيلقّنها الدّرس ويأمرها بحفظه؟ وربما تصنّع الجدّ فانتهرها؟ ألا ينفرد بها أحياناً؟ ألم ينظر إليها مرّة بعين غير الأستاذ؟ كيف تراه هي؟ إنه شاب مثقف ذو مستقبل حسن ولن يضرّه شكله المتجهّم ولا عينه الزجاجية» (محفوظ، ٢٠١٢: ٩٧). الحديث هو حديث الراوي لكنه يستخدم مفردات لم تنطق بها إلّا الشخصيات الرئيسة، فلم تكن مفردة الأعور من إنتاج الروائي بل هي مستمدّة من قاموس الشخصية الروائية أحمد عاكف ولا شك أن هذه المفردة تخرج القارئ من التحليق في أجواء الراوي وتدخله في عالم الشخصية المذكورة فـ«العلامات الأكثر خصوصيّة لفئة أو طبقة تنتمي إليها الشخصية وحتّى العلامات الأكثر خصوصية والتي تتعلّق باللهجة الخاصة لإحدى الشخصيات «كلمات مميّزة وأساليب خاصّة ونبرة صوت» بإمكانها أن تعدّ من الوظائف القياسيّة للخطاب غير المباشر وكذلك العبارات المذكورة الدّالة على الخطاب غير المباشر، بإمكانها أن تقرّب القارئ إلى جانب الشخصية الروائية. لم يكن الرّواي

يغفل عن الخطابات غير المباشرة فيما يتعلّق بالشخصيات الرئيسة، فحينما يريد أن يتحدّث عن الشخصيات أو يصفها، يستخدم ألفاظاً ومفردات تجري على لسان الشخصية المعنيّة أو الشخصيات الأخرى وبذلك يلفت انتباه قارئه إلى تلك الشخصية.

٣-٣. الرّواي

إن تسليط الضّوء على الرّواي ومداخلاته في الحوارات والنسق السردي لبناء الرواية من الموضوعات التي تساعد على كشف جوانب أخرى من سوسيونصيّة الرواية وبإمكان النص الروائي أن يكون تعبيراً عن رؤية السّارد. لو كان السّارد يحكي رواية من زاوية «الأنا» فيسهل إلى حدٍ ما الحكم في الرؤى والأفكار ولكن في رواية خان الخليلي يحكي محفوظ عن الشّخص الثّالث فهو لم يكن عليماً بكافة الأحداث والقضايا والأيديولوجيا أمّا الروائي فهو لا يمثّل أفكار الشخصيات الروائية فحسب، بل يقوم بالرّد عليها من خلال الشخصيات الروائية الأخر ويعلّق كذلك على الأحداث والقضايا التي يواجهها القارئ فهو يقوم بتحكيم الأصوات واللهجات والتناغم بينها. «لم يخامره شك قط في تفوّقه على هؤلاء النّاس من جميع الاعتبارات والوجوه، فهو من أهل السكاكيني وهم من أبناء الدراسة والجماليّة! وهو المفكر والعقل الكامل وهم لا شيء من هذا جميعه. بل خال أن وجوده بينهم تعطف جميل وتعاطف محبوب...» (المصدر نفسه: ٤٩). يقدّم الراوي للقارئ معلومات عن الشخصية الروائية والفضاء الروائي ولكنه لم يكتف بذلك بل يحاول سبر أغوار المحكي عنه فيقوم بنقل وتحليل فكرته الذاتية وعندئذ يصعب على القارئ بعض الأحيان معرفة أنه هل هذا الكلام هو كلامٌ نقل عن الرّواي أم هو مستنبط من قرارة الشخصية الرّوائية، فعبارة «وهو المفكر والعقل الكامل وهم لا شيء من هذا جميعه» هي مشتركة تماماً بين الراوي والشخصية الرّوائية. يشير الشّاهد إلى مناطق القاهرة آنذاك وهذه معلومة هامّة حول قيمة السّكاكيني ومنطقة أبناء الدراسة والجماليّة وكأنّ المستوى الثّقافي

والتّعليمي كان في منطقة السّكاكيني أكثر بالنسبة إلى الجمالية وأبناء الدراسة. صحيح أن الراوي في خان الخليلي هو السّارد العليم، فبالأحرى هو عليم تماماً بمواقف الحديث عن الماضي والمستقبل والحال على شكلٍ لا يضرّ برؤية القارئ وأفكاره فيما يتعلّق بمستقبل الرواية. فالرّواي لم يأبهْ بالحديث عن الماضي ولم ير رادعاً من تقديم لمحة تاريخية-ثقافية عن خلفيّة الشخصيات الرّوائية، بينما تكثر العودة إلى الوراء في الفصول الأولى من الرواية وهي بمثابة التوطئة للفضاء والبنيّة الأوليّة للظّروف والحالات التي تحكم على شخصيّات الرواية ومكانها وزمانها وتأطير كلّ ما أشير إليه بشكل كلّي ويكون نسق التّرتيب الزمني في الرواية التقليديّة «على نظام التّعاقب الزمني، وهو نظامٌ خطّي متسلسل يحكمه المنطق ويتمّ فيه تحديد المكان والزّمان على نحو دقيق تمهيداً لسيلان الحكاية عبر خطّية الزمن» (أحمد، ٢٠٠٥: ٢٣٧) والحقيقة أن هذه التوطئات في بداية الرواية هي تشرح للقارئ كافة التفاصيل الجزئية لايملّ ذكرها: «وطالما توسّلت إلى بعلها ليسمح لها بإقامة حفلة زار[٩]، ولكنّ الرجل لم يصغ إلى توسّلاتها... فيئست المرأة من استمالتها، وقنعت بشهود حفلات الزّار إذا اتّفقت في بيوت الصديقات، حتّى قال أحمد يوماً متعجّباً: حقّاً إن أسرتنا ضحيّة الشيطان» (محفوظ، ٢٠١٢: ٢٦). يقوم الروائي بالحديث عن إحدى الشخصيات الثانوية وهي أم أحمد عاكف «الست دولت» ويقدّم للقارئ هاجساً من هواجس هذه الشخصية، فجاء تقديم الشخصية واضحاً وهو بصدد تبيين شأن المرأة ومكانتها في مصر آنذاك. تعبّر السّت دولت عن روح المرح والدّعابة عند المرأة المصرية وكذلك الشخصيات النسوية الأخرى، ويشير إلى غطرسة المجتمع المصري بالخرافة حيث حفلة الزّار هي جلسة تنعقد لطرد العفاريت وكما أنّ الخرافة التي حاول أن يصوّرها نجيب محفوظ لم تنحصر بحديثه عن الحفلة فقط فحاول أحمد راشد أن يتعلم العلوم الغريبة في بداية الرواية وبلغ الأمر به إلى قراءة كتب نغّصت عليه العيش لمدّة من الزمن وحتى الشخصيات الأخر يظهر فيها هذا الانتماء إلى الخرافات. من

الأساليب الأخرى للرّواي: «لا صحّة ولا أسرة ولا مكانة ولا مال! في البدء قصم ظهرك عثار أبيك، وبدّد آمالك حدبك على شقيقك ثمّ أعقم مواهبك العقليّة ببيئتك الجاهلة؟.. ماذا يتبقّى لك من أحلام دنياك؟ ذهب الشّباب فلم ينجب حتّى ذكرى جميلة تتفيّأ ظلّها في هجيرة العمر» (المصدر نفسه، ١٤٧). قام الراوي بنقل الحالة النفسية للشخصية بواسطة الضمير «الأنا المتكلم» ويساعد حديث المتكلم على الوصول إلى ما يدور في خلد الشخصية بشكل مباشر ودون وساطة وعندئذ يكون الاستئناس مع الكلام وفهمه ألصق وأقرب إلى القارئ وهذا يشهد بأنّ الروائي لم يغفل عن الأساليب والتقنيّات التي تُبعد الخطية و«الرؤية الإدراكيّة للمادة القصصية» تُقدّم من خلال نفس مدركة ترى الأشياء وتستقبلها بطريقة ذاتيّة تتشكل بمنطلق رؤيتها الخاصّة وزاويتها، «أيديولوجيّة كانت أو نفسيّة» بالإضافة إلى المنطلق التعبيري الذي يختاره الكاتب ليقدّم بواسطته روايته» (قاسم، ٢٠٠٤: ١٨١). المونولوجات الطّويلة للشخصية الروائية التي كادت أن تحتلّ فصولاً كلّية من الرواية يمكن أن تعرّف القارئ على الطابع النّفسي للشخصية الرئيسة والشخصيات الأخر وكذلك الأحداث وخاصّة الحوافز الأساسيّة التي تسبّب في حدوث بعض القضايا إذ تستطيع الشخصية من خلال المونولوج أن تكشف عن أشياء مستورة ووقائع تحرص عليها من الآخر فهناك أمور عدّة حالت دون تقدّم أحمد عاكف منها شخصية ومنها اجتماعية وأبرزها «البيئة الجاهلة» التي حاولت الرواية أن تصوّرها برمّتها.

٤. المكان الروائي ودلالته الاجتماعية

يعدّ المكان من الدّعائم الهامّة في البناء السردي فهو بمثابة الظرف الذي تقع فيها الأحداث. و«هو ما يمكننا الإمساك به والدّفاع عنه ضدّ القوى المعادية ولا يمكن أن يبقى مكانٌ ذا أبعاد هندسية وحسب، فهو يمتلك جاذبيّة في أغلب الأحيان ويكشف الوجود في حدودٍ تتسّم بالحماية» (باشلار، ١٩٨٤: ٣١) للمكان أهميّة فائقة فبإمكان

المكان الرّوائي أن يكون في علاقة مباشرة مع العناصر الدخرى للرّواية كالشخصيّات والزّمن و«أهميّة المكان لا تقتصر على المستوى البنائي، بل تتجلّى أيضاً على مستوى الحكاية (المدلول)، وذلك حين يخضع الإنسان العلاقات الإنسانيّة والنّظم لإحداثيّات المكانيّة على المنظومات الذهنية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية، مما يسهم في تجسيدها، وجعلها أكثر منهما وقبولاً لدى المتلقّي، وهذا التّبادل بين الصّور المكانية والذهنية يمتد لإلصاق معانٍ أخلاقيّة بالإحداثيّات المكانيّة تنبع من ثقافة المجتمع وحضارته وهذا يعني أنّ المكان يساهم في خلق المعنى»(أحمد، ٢٠٠٥: ١٢٨). بإمكان المكان والفضاء الروائي أن يرشدا القارئ إلى معلومات هامّة في الرواية وخاصّة الواقعية منها. يستطيع المكان الروائي أن يومئ إلى الأحداث بشكلٍ ضمني وعابر وبإمكان التحليل السردي لعنصر المكان أن يفكّ هذه الألغاز والدلالات التي يكون تصوير الواقع الاجتماعي من أهمّ مدلولاتها في الرواية الواقعية فـ«يعدّ من العناصر المؤثّرة في بناء الرواية. يكتسب في العمل الروائي أهميّة خاصّة لا كخلفيّة للحدث فحسب؛ بل كعامل من عوامل تشكيل الشخصية بوصفه أداة أو وسيلة للإدراك وتحقيق المعرفة والتعرّف على العالم الخارجي» (الحوّ، ٢٠١٦، ١٤٥). كثرت الأمكنة الروائية في خان الخليلي لكن هناك أمكنة تبدو أكثر أهميّة وقد تكون أقرب إلى الواقع المعاش وهى المقهى وخان الخليلي والسّكاكيني.

٤-١. المقهى

احتلّ المقهى مكانة خاصّة في الرّوايات الشرقية منها الفارسيّة والعربيّة في العهد الحديث بحيث أصبح في كثير من البلدان العربيّة منها العراق ومصر مصدراً لتناقل الأخبار وتبادل الأفكار ويظهر هذا الأمر بكثرة في ظروف تكميم الأفواه والتشدّد السياسي، فالكثير من الرّوايات التي ألّفت في فترة الحرب العالمية الأولى والثّانية أو تحدّثت عن هذه الفترة، استخدمت المقهى كملجأ ومكانٍ للإخبار والإعلان وبما أنّ

خان الخليلي تحكي عن الظروف السياسية والاجتماعية التّعسة التي عانى منها الشعب المصري في برهة من الزمن، تعدّ المقهى من الأمكنة الرئيسة التي اجتمعت فيها معظم الشخصيات الرئيسة والثانوية:

«وعند مساء اليوم الثّاني غادر العمارة ووجهته قهوة الزّهرة، فوجدها عند مدخل شارع محمد علي الكبير ... وكانت في حجم الدّكان ذات مدخلين ... وقد وجد في الحي من أمثال هذه القهوة عشرات حتّى قدّر قهوات الحي بمعدّل قهوة لكلّ عشرة من السّكان» (محفوظ، ٢٠١٢: ٤٨). أحبّ الشعب المصري ارتياد المقهى نظراً لروحه المرحة والطّربة التي تهوى الحديث والاجتماع بالصّحاب ولأنّ كثرة الأحداث والوقائع ذات الطابع السياسي هي التي دعت الناس وعوّدتها على الذهاب نحو المقاهي كأمكنة للنقاش والجدل. والمكان «دال على الإنسان قبل أن يكون دالاً على جغرافيا محدّدة، أو دالاً على تقنية تبرز حدوث الوقائع والأحداث. المكان الروائي هو أساساً مكان الإنسان، مكان يحدّد سلوكه، وعلائقه، ويمنحه فرصة الحركة، ويمنعه من الانطلاق» (الدّغمومي، ١٩٩١: ٤٧)؛ فالحوارات التي تدور بين الشّخصيات في قهوة الزّهرة هي ذات طابعين منها اجتماعي يتمثّل في الحوار عن الأدب والشعر والثّقافة والأحداث الاجتماعية والسياسية التي تظهر في الانحياز للألمان أو الإنجليز وتتبّع التغييرات السياسية وبما أنّ الحديث السياسي الذي يدور بين الشخصيات ليس إلّا مجرّد أفكار مزيّفة زرعتها قوّات المتخاصمين فإن تشغيل الشعب المصري بالخرافة والخناء والأفيون وارتياد المقاهي ليس إلّا من السّياسات التي تُساعد على أهداف هذه القوّات ولذلك كثرت المقاهي وأصبح الشعب المصري ولوعاً بها إلى حيث تقول إحدى الشخصيات الروائية: «لا أدري!.. المؤكد فقط أن اليقظة التي نحبّها ونستزيد منها بالقهوة والشّاي يمقتها الرّجل وكثيرون أمثاله: وتراه إذا أجبر بسببٍ ما، على البقاء فيها مدّة متثائباً، دامع العينين، شرس الخلق، ولاتسكن ثائرته، ويصفو مزاجه حتّى يغيب عن الوجود ويهيم في عوالم الذّهول» (محفوظ، ٢٠١٢: ٥٧). فاليقضة التي تستفيدها

الشخصيات الرئيسة هي ظاهرية تستمد طاقتها من شرب القهوة والشاي ولو أجبر أحدٌ على البقاء فيها فلا يتمتّع إلا بالتّيه في عوالم الذهول والحقيقة أنّ قراءة الأحاديث التي دارت بين الشخصيات في المقهى تُثير الضّحك عند القارئ الواعي بالتاريخ وذلك بسبب فضاعة ادعاءات الشخصيات الرئيسة والفلسفات التي تتبنّاها منها أنّ الألمانيّين يُكنّون الودّ للإسلام أو أن هتلر ينوي تحرير البشر من غلّ الأوهام والخرافات. تحكي كثرة الأحاديث المتبادلة بين الشخصيات في المقهى عن واقع شعب متردّي الثّقافة والاجتماع دون مبالغة و«الرواية اعتماداً على تعدّد اللغات والأساليب والأصوات فهي تستقبل داخل بنائها عناصر ووحدات غير متجانسة، إذ تحتوي على لغات للمهن وللأجناس التعبيريّة والفئات الاجتماعية» (وديجي، ٢٠١٩: ٨٤)، فأصبحت المقهى في الرواية من الأمكنة الأليفة التي كان لابدّ للرجل المصري أن يمضي فيها أوقاتاً من النهار أو الليل. كان معظم الشخصيات الروائية التي يتواصل معها أحمد عاكف هي التي رآها في المقهى وتعرّف عليها وحتى نساء الحي، استطاع أن يصف لأمّه أزواجهن وأن يستفسرها عن بعض الأحاديث التي كان سمعها عنهن وعن الجيران من أمّه. مما يدلّ على أسباب الذّهاب إلى المقهى عند الشخصيات الرئيسة: «ورأى أن يذهب كعادته صباح الجمعة إلى الزّهرة ووجد حزنه حافزاً يدعوه للذّهاب إلى هناك ابتغاء الوسيلة إلى التسلّي عن حظّه» (محفوظ، ٢٠١٢: ١٤٨). التسلّي عن الحظّ التّعس للشخصية الرئيسة هو الحافز لذهابها إلى المقهى. بعد قراءة بعض فصول من الرواية يتوصل القارئ إلى أنّ الكثير من الشخصيات الرئيسة حاولت أن تخفّف من ألمها ومعاناتها بالذهاب إلى هذا المكان وخاصة شخصية أحمد عاكف التي تحوّل رأساً على عقب منذ اعتادت ارتياد مقهى الزّهرة بحيث «استطاعت هويّة المقهى التي يكون الطابع الاجتماعي ميزتها الرئيسة أن تغيّر هويّة أحمد عاكف من شخصية منعزلة إلى شخصية تودّ العلاقات ولها مرابطات تختصّ بها وهذا يعني تأثير هويّة المكان في هويّة الشّخص» (كاظم زاده وروشنفكر، ١٤٠٠: ١٤٣). كما أنّ

المقهى لم يكن مصدراً للتوعية فحسب بل استطاع أن صوّر تلك الظروف المتدهورة فكريّاً ومعيشياً حيث يفرّ الإنسان من مشاكل الحياة إليه كي يحصل على قسط من الرّاحة بعيداً عن ضوضاء العائلة والبيت ومتطلّباتهم. «وغادر البيت قبل العشاء إلى الزّهرة فاجتمع بالصّحاب، وراحوا يتسامرون ويحتسون الشّاي ودار الحديث حول الصيام وكيف أنّ كثيرين من أهل القاهرة لايؤدون فريضته لأوهى الأسباب» (محفوظ، ۲۰۱۲: ۸۳). استطاع الروائي بحديثه عن المقهى أن يكشف عن الواقع الذي عاشه الشعب المصري فما إن يحدث حادث تاريخى أو اجتماعى أو سياسى إلّا وأخذه المقهى على محك التمحيص والتّساؤل، صحيحٌ بأن الأحاديث التي تدور بين الشخصيات هي ليست إلّا مستمدة من أفكارها ولم يكن لها مصدر تاريخي موثوق بها ولكنّها تستطيع أن ترشد القارئ إلى معلومات كثيرة، كما أن الشاهد تساؤل عن أداء فريضة الصّيام في حالة الاستطاعة بينما لايوجد تطابقٌ بين أقوال الكثير من هذه الشخصيات وأفعالها فبعضها تغطرستْ في أعمال خالفها الدّين ونهى عنها وهذا الأمر دلالة على المهزلة والاستخفاف بالالتزام الدّيني لدى الشخصيات الرّوائية التي تُنبئ عن واقع الشعب المصري.

۴-۲. خان الخليلى

خان الخليلي من الأمكنة الهامّة التي لايمكن غضّ النّظر عنها في الرواية فهو المكان الذي سُمّيت به الرواية وهو المكان الذي شهد أهمّ ذكريات أسرة أحمد عاكف أمّا السّبب لتسمية الرواية بهذا المكان هو أن الكثير من روايات نجيب محفوظ الواقعيّة تعنونت بالأمكنة، وكأنّه أراد أن ينظر إلى واقع المجتمع من خلال الأمكنة الواقعيّة التي عرفها الشّعب المصري. خان الخليلي هو المكان الذي دهشت به أسرة أحمد عاكف أفندي بسبب التّقاليد والعادات والأشياء الغريبة التي رأتها فيه لأوّل مرّة وهذا الانتقال من السّكاكيني إلى خان الخليلي أدّى إلى أحداث كثيرة ولكن سبب

الانتقال: «هذا الحي في حمى الحسين رضوان الله عليه، وهو حي الدّين والمساجد، والألمان أعقل من أن يضربوا قلب الإسلام وهم يخطبون ود المسلمين؟» (محفوظ، ۲۰۱۲: ۱۱). ألقى عاكف أفندي، أبو أحمد هذا الكلام وقد يوافق القارئ على أنّ «الألمان أعقل من أن يضربوا قلب الإسلام» ولكنهم «يخطبون ودّ المسلمين» فهذا خطأ تماماً والكثير من الأسر انتقلت إلى هذه المنطقة وهي ذات طابع مذهبي ودينـي منذ قديم الزمن وخاصّة في تلك الفترة حيث إنّها وصلت إلى درجة يقال لها قلب السلام بينما كانت المناطق الأخرى تتمتّع بميزات أخرى كما أنّ الكثير من ساكني منطقة السّكاكيني من أبناء اليهود و«من خلال الأماكن نستطيع قراءة سايكولوجيّة لساكنيه و طريقة حياتهم وكيفية تعاملهم مع الطّبيعة» (نصير، ۱۴۳۰: ۱۷)؛ إذن تتجلى مكانة منطقة خان الخليلي أكثر وضوحاً. مما بدأت بتعريف حي الحسين أو خان الخليلي:

«صدقوا ثمّ صدقوا، إنّه حي مبارك محبوب، مكرّم من أجل صاحبه، وسوف ترى فيما يقبل من الأيّام أنّك لن تستطيع السلو عنه أو الزّهد فيه، وسوف يدعوك شيء من الأعماق إليه تفضّل خذ نفساً من النارجيلة» (محفوظ، ۲۰۱۲: ۴۲). خان الخليلي مزدهرٌ بوجود رأس الحسين ومكرّم من أجل صاحبه ويبدو أن الشخصية تقصد بأنّ هذا التكريم لم يختص بالنّاس فحسب بل تعدّى ذلك إلى ساسة الأمم والوطن والحقيقة أن ليالي رمضان الزّاهرة التي وصفها الروائي والأطعمة والحلويّات، تشوّق النّاس إلى وصول هذا الشّهر المبارك. جلسات السّمر وصلة الارحام ولعب الأطفال في الأزقّة والشّوراع واجتماع النّاس في المخبأ وتعرّفهم على بعضهم البعض كلّها تحكي عن الطّقوس المختصّة برمضان وتفاصيل الحياة اليوميّة لسكّان خان الخليلي. أكثر الروائي من وصف فضاء هذا الحي وتعدّى إلى وصف الأبنية والشّوارع ولم يدعْ محفوظ شيئاً إلّا وبدأ بوصفه وتناول ميزاته وتفاصيله:

«والحسين وجدّه.. بل جلّ أصدقائي أفندية من خيرة هذا الحي، فالعمارات الجديدة جذبت أسراً طيّبة كثيرة، يوجد هنا كلّ ما نريد.. القهوة والرّاديو واللطف

والنارجيلة، بل هنا متّسع لمرضيّة الله ومعصيته على السّواء» (المصدر نفسه، ٤٣). يرسم الروائي الظروف العامّة التي خيّمت على هذا الحي، فقد بنيت بعض العمارات حديثاً وجذبت هذه العمارات أسراً طيّبة كثيرة وقد نوت الشخصية الرّوائية أن تفصح عن الإمكانيّات التي تمتّع بها هذا الحي ولعلّها تشير إلى مؤامرة خفيّة من قبل الغرب والدّول المتحاربة فهذه الرفاهية التي فقدتها المدن المصرية والمناطق الأخرى من القاهرة ليست عاديّة؛ إذ إنّ المدينة تعتبر «في بعدها المعماري والسكاني إطاراً تنظيمياً واجتماعياً وسياسياً أكثر تعقيداً» (يونس، ٢٠١٦: ٤١)، فكأن الغرب بدأ بتوجيه حرب باردة وغزوٍ ثقافي خفي على هذه المنطقة ذات الطابع الدّيني، حيث أصبح هذا الحي متّسعاً لمرضية الله ومعصيته على السّواء بدلاً من مواجهة الحملات والغارات والحديث عن الدّين. ينمّ استنتاج الشخصية الرّوائية عن الاضمحلال الديني بالخرافة وإهمال الالتزام بالمبادئ الإنسانية والدينية التي أصبحت دمية بيد الغربي في الرواية. من الموضوعات التي سعت الدعايات الغربية إلى ترسيخها في أذهان المصريين هي سياسة التهاون بالنسبة إلى الديانة فهذه الشخصية التي تحكي عن عدم انفصال المرضية والمعصية، ليست إلّا من يأخذ كلّ شيء بالاستخفاف، كما أنّ كافة الشخصيات الروائية ليست ثابتة في العقيدة والالتزام بالمبادئ الدينية اللهم إلّا أحمد عاكف وعاكف أفندي. «هنا نحن نصدر المواد الأوليّة والأحياء الأخرى توردها مصنوعة، فمن بعض أطراف هذا الحي تصدر الخادمات فتحوّلها الأحياء الأخرى إلى غانيات، في هذه الحرب قلبت الدّنيا رأسها على عقب، تصوّر يا إنسان أنّي سمعت بالأمس بنت بائعة فجل تدعو أختها فتقول «تعالي يا دارلنج»! (محفوظ، ٢٠١٢: ٤٤). يظهر التردّي الاجتماعي وظاهرة الفساد التي دبّت في المجتمع، فأدّتْ محاكاة بعض المصريين العشوائية للثّقافة الغربية إلى ظهور مهزلة ثقافية اجتماعية: «إصدار المواد الأوليّة واستيرادها مصنوعة»، فهناك فئة قد حذت حذو الثّقافة المتردّية منذ البدء والفئة التي تحتذي هذا الحذو فيما بعد وهذه إشارة فظيعة إلى شدّة تأثير الدّعايات

الغربية وتأثيرها على الأحياء المصرية، كأمكنة تتمتّع بميزات تنفرد بها واستطاع الروائي بوصفه للفضاء المكاني أن يصوّر الكثير من الوقائع التاريخية التي أصبح الشعب المصري متعوّداً عليها في تلك الفترة «والفضاء المكاني في النصوص الحكائية يكشف عن عادات سكانه وتاريخهم الثّقافي والمعرفي والسياسي، بتعبير آخر إنه يقدّمهم في صيرورتهم التاريخية والحضاريّة» (يونس، ٢٠١٦، ٤٠)؛ فالحديث عن التّردي الاجتماعي وسياسة بثّ الإدمان والأفيون وتطبيع النّاس على التّدخين وكذلك الفساد الذي شاع بين مناطق مصر المختلفة وتطبيع النّاس على نموّ هذا الفساد ومشاركتهم فيه يشير إلى المآزق التي وقعت فيها المجتمعات الشرقية ومنها مصر وكذلك يسفر عن التغطرس في احتذاء الثقافة الغربيّة وتتبّع سياساتها التي لم تجلب إلى التردّي الثقافي والأخلاقي لشعب مصر.

٤-٣. السّكاكيني

السكاكيني من المناطق الهامّة في الرواية والتي قطنتها أسرة عاكف أفندي في البداية، وورد اسمها عدّة مرّات: «كان قلبه ينازعه إلى المقام القديم الحبيب، ويمتلئ حسرة كلّما ذكر أنّه قذف به إلى حي بلدي عتيق، إلّا أنّه لم ينس ما خامره من شعور الارتياح حين علم أنّه ابتعد عن جحيم ينذر بالهلاك المبين، ولعلّه أن ينعم الليلة بأوّل رقاد آمن بعد تلك الليلة الشيطانية التي زلزلت أفئدة القاهرة زلزالاً شديداً» (محفوظ، ٢٠١٢: ٥). يعدّ السّكاكيني من الأمكنة الأليفة والمكان الأليف هو «الذي يولد الإنسان فيه، أي بيت الطفولة، إنّه المكان الذي مارس الإنسان فيه أحلام اليقظة وتشكل فيه خياله فالمكانية في الأدب هي الصورة الفنيّة التي تذكر الإنسان أو تبعث فيه ذكريات بيت الطّفولة، ومكانيّة الأدب العظيم تدور حول هذا المحور» (يُنظر: باشلار، ١٩٨٤: ٦) السكاكيني مسقط رأس أحمد عاكف وكانت هذه الأسرة من الأسر القديمة التي سكنت هذه المنطقة فهو «حي بلدي عتيق» لكن سرعان ما يتحوّل هذا

الحي المحبوب إلى جحيم يُنذر بالهلاك المبين حتى غادرته معظم العوائل ويبدو أن عداء الألمان وحلفائه مؤثّر في هذا حيث كانت أغلبيّة اليهود تسكن هذا الحي، لكن على الرّغم من ذلك، هناك علاقة تجمع بين الشخصية ومكانها الأوّل التي تُثير الاستغراب حينما يتمّ الحديث عن ذلك المكان: «أين من هذه النّافذة نافذة حجرته بشارع قمر المشرفة على ميدان السّكاكيني حيث لاتغيب عن عين النّاظر أسراب ظباء اليهود وتنهّد محزوناً، ثمّ أجال بصره فيما حوله» (محفوظ، ٢٠١٢: ١١٩). السّكاكيني هي المنطقة التي ضمت أصناف المرح والفرح لأسرة عاكف وسجّلت خواطر لاتُنسى في ذهن هذه الشخصية منها تجارب أحمد الغراميّة والأزمات التي واجهته في عنفوان شبابه وتشكيل هويّته، أمّا من المنظور الاجتماعي، بما أن المكان «حامل لمعنى ولدلالة أكثر ما هو مجرّد شيء مصنت وتبدو أهميّة المكان المعنوي في البناء الروائي للشّخصيّات قضية أساسية للشخصيات الرّوائية» (عثمان، ١٩٨٦: ٩٤)، فأراد الروائي أن يُشير إلى غالبيّة سكان هذه المنطقة وهم من أبناء اليهود وكانوا يعيشون عيشة رخاء ونعمة ومن النّقاط الضمنية هي أن البنايات والعمارات المصرية كانت تتمتّع بنمط خاصٍ من الهندسة فكان لكلّ بناية نافذة وشرفة تطلّ على الشّارع وهذا ما يظهر في غرفة أحمد عاكف ورشدي عاكف ونوال، فكان الجيران يتبادلون السّلام من الشّرف المتقابلة وكان هناك تعاطف وتواصل من قبل الجيران والأهمّ من ذلك هو أن هذه النّوافذ كانت قريبة من الأخرى وهذه إشارة إلى ضيق الأزقّة والشّوارع. «والجيران؟/ أوه.. غالبيتهم من أهل البلد ولكن كثيرين من سكّان العمارات الجديدة من طبقتنا!/ وهل وجدتَ فيه مكاناً صالحاً للتّفكير والدراسة؟» (محفوظ، ٢٠١٢: ١١٦-١١٧). تتجلى روح إنجاز العلاقات والتواصلات مع الجيران وخاصّة عند أم أحمد عاكف وتتبّع أخبارهم وهذا يعني استفسار رشدي عاكف من أخيه حول الجيران والحقيقة أنّ معظم الشخصيات الرّوائية كانت ممن جمعها الجوار مع عائلة عاكف أفندي ويكشف عن دور الجيران ومدى أثرهم على العائلة والروح الجمعية

في مجتمع مصر وكذلك يصوّر الروائي للقارئ الاختلاف الطّبقي بين النّاس، ولو أن أسرة أحمد عاكف هي أسرة بائسة كباقي الأسر، لكنها تفوقها بسبب أنّها كانت تسكن منطقة السّكاكيني ولعلّ لفظة «أوه» تشير إلى مدى الاختلاف بين الطّبقات الاجتماعية ويحكي بشكلٍ ضمني عن خصائص طبقة أحمد عاكف التي تتمثّل في الانتماء إلى المطالعة واكتساب العلم وعموماً يستطيع القارئ أن يحسّ البون الشاسع بين المناطق السكنية.

٥. النّتائج

١- يعدّ الحوار وخطاب الشخصيّات الإيديولوجي وكذلك المكان الرّوائي ومدلولاته الاجتماعيّة من أهمّ المناظير التي تطرّق منها نجيب محفوظ إلى السوسيونصّية. أدّى الحوار وخطاب الشخصيات الإيديولوجي إلى التعرّف على الكثير من الأفكار التي كانت تحكم على المجتمع وترسم له مساره سواء كانت سلبيّة أو إيجابيّة وبالنسبة إلى الأصوات الروائية فاستطاع نجيب محفوظ باستخدامه للأساليب المختلفة للتّعبير عن الأصوات الروائية أن يخفّف من السّير الخطّي للحديث ويخلق جوّاً حميماً للقارئ، كما أن قريحة الروائي أجادت في استخدام المفردات والخطابات المتعلّقة بكلّ من الفئات الاجتماعية وموقعها من المجتمع بشكلٍ مميّز ومنقطع النّظير.

٢- احتل المكان الروائي دوراً مميزاً في التعبير عن الواقع الاجتماعي ومدلولاته، فالمقهى لعب دوراً أهمّ من الأمكنة الأخرى حيث كان ملاذاً للأصدقاء والرّفاق وشهد الكثير من الأبحاث السّياسية والاجتماعية وخاصّة الثقافية واختلف مقهى محفوظ عن المقاهي الأخرى، فبث روح الدّعابة والمزاح بين الشخصيات الروائية في حديثهم وكذلك الحديث عن بعض المضامين الهزليّة أدّى إلى التآلف في هذا المكان كما أنّ وصف الأمكنة والحديث عنها هي قد تكون ذات فائدة تاريخية وجغرافيّة تُخلّد هذه الأمكنة.

٣- تصوّر رواية خان الخليلي للقارئ هواجس الشعب المصري والنفسيات والواقع الاجتماعي المعاش، فهناك شخصيّات روائيّة مختلفة، إحداها تمثّل الطّبقة المثقّفة، والأخرى تمثّل الشخصية الدينيّة وهي ليست إلّا في صدد تمثيل و تبيين أفكار الشّارع المصري آنذاك، فخان الخليلي رواية بوليفونيّة لاتنوي إيصال ونقل فكرة أو وجهة نظر خاصّة من منظور السّارد إلى المتلقّي بل هناك أصوات وأفكار عديدة، تشابهت وتناقضت حتّى وصلت إلى شيء من الإبهام وهذه الأصوات والأفكار هي أهمّ ميزات هذه الرّواية والتي تكون ماثلة أمام المتلقّي. ويمكن القول بأن الرّوائي أراد أن يصوّر للقارئ عدم التراتيبيّة و الضّوضاء التي خيّمت على المجتمع المصري وعلى مستويات أنظمته الاجتماعية والثقافية والسّياسية.

٤- دقّق محفوظ في تناوله الموضوعات السياسية وخاصّة الاجتماعية فالرواية تعبير عن مشاكل المجتمع سواء أكانت موجّهه من قبل الآخر المحتل أو من الثّقافة المتردّية للشّعب منها سياسة بثّ الأفيون في المجتمع المصري وبثّ الخرافات والفساد والدّعارة، والمستوى الثّقافي المنحط ولا يكتفي محفوظ بالتعبير عن الأزمات والمشكلات بل يحاول أن يقوم بتحليل وفحص أسباب هذه المشاكل وحلّها على لسان الشخصيات الروائية وبهذا النّمط يحاول أن يبيّن للقارئ مدى سذاجة الشعب المصري مع مواجهة المشاكل آنذاك وحتّى الإهمال في حلّها. عبّرت رواية خان الخليلي عن تفاصيل الحياة الاجتماعية وتتمثّل جماليّتها في نمط التعبير عن الأزمات والواقع المعاش وكذلك الحفاظ على الطابع الأدبي وجذّابية الرواية وفي الحقيقة أمسك محفوظ العصا من الوسط، فالقارئ لايحسّ بأي ضجرٍ وملل فهو انتقى موضوعات قد تكون فرعيّة أو ظرفاً للتعبير عن الواقع وموضوع الحبّ والصراع بينه وبين الكبرياء.

پی‌نوشت‌ها

1. Karl Marx
2. Georg Lukacs
3. Lucien Goldmann
4. Pierre Zima
5. Claude Duchet
6. Mikhail Bakhtin
7. marie claude hubert
8. joélle gardes tamine

۹. تشمل طقوس "الزار" رقصاً وقرعاً على دفوف يتمايل على صوتها المشاركون فيه يميناً ويساراً إلى أن يصلوا إلى حالة تشبه الغيبوبة وهذه الطقوس تعود قرون مضت، وتُقام في مصر والسودان والصومال وجنوب إيران. ويُنظر للزار في مصر باعتباره وسيلة لطرد الأرواح الشريرة بهدف تخليص النفس البشرية من الشياطين (https://www.dw.com).

المصادر والمراجع

- أحمد، مرشد (٢٠٠٥)، البنية و الدلالة في روايات إبراهيم نصر الله، ط١، بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر.
- أكبري‌زاده، فاطمة وكبرى روشنفكر، خليل پروينى وحسينعلي قبادي (٢٠١٤)، دراسة سوسيونصّيّة في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي، مجلة دراسات في اللغة العربيّة وآدابها، العدد التّاسع عشر، ص٢١-٢٥.
- باختين، ميخائيل (١٩٨٦)، شعريّة دوستويفسكي، ترجمة جميل نصيف التّريكي، ط١، الدّار البيضاء: دار توبقال.
- _____ (١٩٨٦)، الماركسية وفلسفة اللغة، ترجمة محمّد البكري ويمني العيد، الطّبعة الأولى، المغرب: دار توبقال للنّشر.
- باشلار، غاستون (١٩٨٤)، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، ط٢، بيروت، المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنّشر، بيروت.
- بن عابد، مختارية (٢٠١٩)، الأبعاد الاجتماعية والأسرية في الأمثال الشعبيّة الجزائريّة، مجلّة الكلم، المجلّد ٤، العدد.
- الدغمومي، محمّد (١٩٩١)، الرواية المغربية و التغيّر الاجتماعي، ط١، الدّار البيضاء: أفريقيا الشّرق.

- زيما، بيير (١٩٨٥)، النقد الاجتماعي حول علم الاجتماع النص الأدبي، ترجمة عايدة لطفي، ط١، القاهرة: دار الفكر للدّراسات والنّشر والتوزيع.
- الشّاذلي، عبد السّلام محمّد (١٩٨٥)، شخصية المثقّف في الرواية العربيّة الحديثة (١٩٥٢-١٨٨٢)، الطّبعة الأولى، بيروت: دار الحداثة.
- طه، نعمان محمّد أمين (١٩٧٩)، السخريّة في الأدب العربي حتّى نهاية القرن الرّابع لهجري، مصر: دار التوفيقيّة.
- عبدالنّبي، عماد خالد (٢٠١٦)، البعد السّوسيونصّي للرّواية الليبيّة، روايات الطّاحونة والتّابوت ويالي نجمة، حوليّات آداب عين الشّمس، المجلّد ۴۴.
- عطيّة، أماني محمّد عبد الكريم (٢٠٢٠)، استنتاج الدّلالات الضّمنية في خطاب الحوار الروائي رواية خان الخليلي أنموذجاً في ضوء مبدأ الاستلزام الحواري، حولية كلّية اللغة العربية بإيتاي البارود، العدد الثّالث وثلاثون، الرّقم الثّاني، ص٢٠٢٤-٢٠٨١.
- عثمان، بدري (١٩٨٦)، بناء الشخصية الرئيسيّة في روايات نجيب محفوظ، ط١، لبنان: دار الحداثة.
- قاسم، سيزا (٢٠٠٤)، بناء الرواية «دراسة مقارنة في ثلاثيّة نجيب محفوظ»، بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر.
- القبيلات، نزار مسند ارشيد (٢٠١٠)، تعدّد الأصوات في الرواية الأردنيّة، رسالة لنيل درجة الدّكتوراه في اللغة العربيّة وآدابها، الجامعة الأردنيّة، كليّة الدراسات العليا.
- كاظم زاده، نسرين وكبرى روشنفكر، (١۴٠٠)، مؤشّرات الانتماء للحي في رواية خان الخليلي لنجيب محفوظ، مجلّة الجمعيّة الإيرانيّة للغة العربيّة وآدابها، العدد ۵۹، صفحات ١٢٩-١۵۴.
- ـــــــــــــ وفرامرز ميرزايى (١۴٠٠)، دراسة هويّة المكان الثّالث في رواية خان الخليلي لنجيب محفوظ على أساس نظريّة اولدنبرج، فصليّة لسان مبين العلمية، السّنة الثانية عشر، العدد الثّالث والأربعون، ۴٣-۶٢.
- الكردي، عبد الرّحيم (٢٠٠۶)، السّرد في الرواية المعاصرة، الرّجل الذي فقد ظلّه أنموذجاً، تقديم طه وادي، الطّبعة الأولى، القاهرة: مكتبة الآداب.
- لحمداني، حميد (١٩٩٠)، النقد الروائي والأيديولوجيا، من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، بيروت: المركز الثّقافي العربي.
- نصير، ياسين (١٩٨٦)، الرواية والمكان، بغداد: دار الشؤون الثقافية.

- وديجي، رشيد (٢٠١٩)، التعدّد اللغوي وحواريّة الخطاب عند باخين، التجليّات والدّلالة، مجلّة تبيّن، صيف ٢٠١٩، عدد ٨/٢٩.
- يقطين، سعيد (٢٠٠١)، انفتاح النص الروائي (النص والسّياق)، ط٢، بيروت: المركز الثّقافي العربي.
- يونس، عبد الرّحمن محمّد (٢٠١٦)، أهم مكوّنات الفضاء المكاني في الخطاب الروائي العربي المعاصر، الموقف الأدبي، عدد ٥٣٨.

المصادر الأجنبيّة

- joélle gardes tamine, marie claude hubert: Dictionnaire de critique littéraire, Armand colin , Paris , 2004.
- Some recent soviet studies in literature, v. Idanov soviet literature, .moscou, 1956, no. 8.

المواقع

- طقوس "الزار" في مصر تخرج إلى النور، (https://www.dw.com/ar/).

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

Abstract

Sociological study of *Khan al-Khalili* novel by Naguib Mahfouz

Amir Farhangnia*
Ali.Purhamdanian**

Sociology of text is a branch of the social approach of literary criticism that occurred in the twentieth century. While relying on the literary text, the sociology of text seeks to fill the gaps that the audience encounter in the literary work and its relation to society, whether in the cultural, social, or political spheres. The new novel, especially the realistic one, illustrates and immortalizes the pains and crises that human beings suffer from and face over time. Khan al-Khalili is one of Najib Mahfouz's most famous realistic novels, depicting his life and social reality, as well as the cultural and political aspects of the Egyptian nation during the First and Second World Wars. Since this novel is valuable as a book full of historical and sociological information and helps the reader to get a general idea about those lived conditions, this paper aims at using a descriptive-analytical method and relying on the social nature of criticism and analysis to study its text. Reading narrative voices, an ideological discourse of the characters, and studying the obvious settings of the novel are important topics investigated in this article. One of the most important results is that the different voices and ideas in the novel are sometimes similar, sometimes contradictory, and sometimes reach that point of ambiguity which indicates the disorder and chaos in Egyptian society and social, cultural, and political systems. Moreover, the novel Khan al-Khalili did not take anything away from the social life of that period and it can be said: the aesthetics of this novel lies in the way of expressing problems, crises, and lived realities while preserving its literary aspects at the same time.

Keywords: Sociology of Text, Egyptian Novel, Najib Mahfouz, Khan Al-Khalili.

* Assistant Professor, Department of Arabic Language and Literature, Shahid Beheshti University (Corresponding Author) a_farhangnia@sbu.ac.ir
** PhD Student of Arabic Language and Literature, Shahid Beheshti University ali.purhamdanian@gmail.com